الفاقِدُ التّعليميُّ والتّعلُّمي في إهمالِ تعليمِ أصولِ معاني المفردات، في تعليم العربيّة الحديث

أ.د. عيسى علي العاكوب
عُضْوُ مَجْمَعِ اللّغةِ العربيّةِ في دمشق
أستاذُ البلاغةِ والنّقدِ في جامعةِ حَلَب

- في أصْلِ المسألةِ:

تَرْمي هذه الوَرَقةُ إلى التَّنبيهِ عَلَى ضَرَرٍ قديمٍ جَديدٍ لَحِقَ، وما يزال يلحقُ، الخِبْرةَ بِاللّغةِ العربيّةِ وتَعْليمِها وتعلُّمِها في دِيارِها وبينَ أبنائها. ومُختصَرُ الأمْرِ أنّ تقليدًا تَعْليميًّا لِلْعربيّةِ، حدّدَتْ عناصِرَه أوضاعٌ خاصّةٌ أحاطَتْ بِتَعليم العربيّةِ في القرونِ الأولى، استمرَّ كما كان علَيه على امتدادِ القُرونِ، مع تغيُّرِ الأوضاعِ المحيطةِ بِالمُعَلِّمينَ والمتعلِّمين. وابتغاءَ الإيضاحِ، أقولُ إنّ تعليمَ النَّحْوِ قديمًا مَثلًا كان يُقدِّمُ الشّواهِدَ والأمثلةَ بِغير شَرْحٍ لِأصولِ معاني المفردات، ولا لِمعانيها الدّقيقةِ في السِّياقاتِ التي تَرِدُ فيها في هذه الشّواهِدِ والأمثلة. ويَرْجِعُ قَدْرٌ كبيرٌ مِن ذلك إلى أنّ المعلِّمينَ كانوا يفهمونَ المعانيَ الأصولَ، والمعانيَ السّياقيّةَ، وإلى أنّ المُتعلِّمينَ أيضًا كانوا يَشْرَكونَهم في قَدْرٍ مِن هذا، بِسَبَبِ حَياةِ الفريقَيْنِ غالبًا في البيئاتِ والحواضِنِ المُنْتِجةِ لِهذه الشّواهِدِ والأمثلةِ. فإنّ عَيْشَ المعلِّمينَ والمتعلِّمينَ الحياةَ العربيّةَ

بِتفاصيلِها كفَى الفريقَيْنِ مَؤونةَ الإِتْيانِ بِالشّروحِ إبّانَ التّعليم. وكان تقصيرُهما في هذا الميدانِ مَدْعاةً لِلنّفور، ودافعًا إلى الإزراءِ والانتقاص. وأفترضُ مُصيبًا، إن شاءَ اللهُ، أنّ مُعلِّمَ العربيّةِ ومُتعلِّمَها كانا يَفْهمانِ، في عُصورِ ابتداءِ تعليمِ العربيّة، المعانيَ الأصولَ والمعاني السّياقيّةَ لِمفرداتِ بَيْتٍ مِن قَبيلِ قَوْلِ امرِئ القَيْس:

وقَدْ أغتدي، والطَّيْرُ في وُكناتِها بِمُنجَـرِدٍ قَيْـدِ الأوابـدِ هَيْكَـلِ

وهذا القَدْرُ المشترَكُ مِن الفَهْمِ الآتي مِن مُلابَسةِ عناصِرِ الوجود، يُساعِدُ يقينًا عَلَى فَهْمِ المقاصِدِ الدّقيقة لِقائلي المُتون، وعَلَى إدراكِ العلاقاتِ بينَ المفرداتِ المفهومةِ مَعانيها، ويُساعِدُ بِالتّبعيّةِ عَلَى المعرفةِ الدّقيقةِ لِمَعاني النّحو، مِن ابتداءٍ وإخبارٍ، وفِعْليّةٍ وفاعليّةٍ ومفعوليّة، وظَرْفيّة.. ويَفرِضُ تصوّرُ الموقفِ أنّ المُعلِّمَ والمتعلِّمَ في ذلك الوقتِ كانا يَعْلَمانِ، بِتفاوتٍ في القَدْرِ طبعًا، أصْلَ المعنَى لِلْفِعل «أغتدي» في البيتِ المتقدِّم. يَعْلَمانِ أنّ «الغُدْوةَ» هي ما بينَ صَلاةِ «الغَداة» – أي الفَجْر – وطُلوعِ الشّمْس. ويَعْلَمانِ أنّ «الغُدُوَّ» مَعْناهُ الانطلاقُ صَباحًا في «الغُدْوة»، وهو ضِدُّ الرَّواحِ الذي مَعْناهُ في الأصْلِ: ضِدُّ الصَّباحِ، وهو اسْمٌ لِلْوَقْتِ مِن زَوالِ الشّمْسِ إلى اللّيلِ، وهو أيضًا مصدَرُ راحَ يَروحُ، الذي هو ضِدُّ غَدا يغدو. وأُخَمِّنُ أنّ المُعلِّمَ والمتعلِّمَ كانا يسمَعانِ مِثْلَ قولِ العرب: سَرَحَتِ الماشيةُ بِالغداةِ، و: «راحَتْ» بِالعَشِيّ، «تَروحُ» رَواحًا، أي رَجَعَتْ.

ويَفْرِضُ تصوّرُ الموقفِ أيضًا أنّ مُعَلِّمَ النَّحوِ ومتعلِّمَه، في ذلك الوقت وفي تلك البيئات، كانا يَعْلَمانِ أيضًا أنّ امْرَأَ القَيْسِ قَصَدَ، في مَطْلَعِ البيتِ،

أنّه في مَقامِ الفَخْرِ بِالسِّيادةِ والفُروسيّةِ يَزْعُم أنّه ينطلِقُ لِلصَّيدِ مُبكِّرًا، أي يغتدي. وأنّ هذَيْنِ كانا يَعْلَمانِ مَعْنَى «الوُكنات» وأنّها جَمْعُ «وَكْن»، وهو عُشُّ الطّائرِ في جَبَلٍ أو جدار. وأنّه، تَبَعًا لِذلك، لا يَحتاجُ المُعلِّمُ والمتعلِّمُ في ذلك الوقتِ الافتراضيِّ إلى شَرْح أصولِ معاني المفردات. وينطبِقُ هذا التّصوّرُ نِسْبيًّا عَلَى الموقفِ مِن عَجُزِ البيت.

ومَنطِقُ الأمورِ يقولُ لنا هنا إنّ اتّصالَ المُعلِّمينَ والمُتعلِّمينَ بِالحياة في ذلك الوقت أَمْلَى مِثْلَ هذه الكيفيّةِ مِن إهمالِ تَعْليمِ أصولِ مَعاني المفردات؛ لِأنّها مِن المُتعالَم المعروفِ الذي ذِكْرُه مِن الفُضول. ففي تلك الحياةِ تُتداوَلُ نِسْبيًّا تلك الألفاظُ، وتُفهَمُ مَعانيها، ويُبنَى عَلَى ذلك القَدْرِ مِن الفَهْمِ أن يُشغَلَ عَقْلُ مُتعلِّمِ النّحوِ بِعِلْمٍ آخَرَ، هو العلاقاتُ بينَ مَعاني المفردات، والمعاني النحويّة التي تنهَضُ بِها مَعانيها المعجميّةُ في السِّياقِ الذي تَرِدُ فيه. يُشغَلُ عَقْلُ المتعلِّمِ لِلنّحْوِ بِمعرفةِ أنّ جُمْلةَ «والطّيرُ في وُكناتِها» حاليّةٌ واصِفةٌ لِاغتداءِ امرئ القَيْس حالَ كونِ الطّيرِ ما زالَتْ في أعشاشِها قبْلَ أن يَغْمُرَ نورُ الشّمسِ الوجودَ. ومعرفةِ أنّ اغتداءَه كان بِجَوادٍ مُنْجردٍ قَصيرِ الشَّعْر، سَريعِ العَدْوِ إلى حدّ أنّه بمجرّدِ انطلاقِه خَلْفَ الصُّيودِ من الوَحْش، الأوابِدِ، يُدْرِكُها بِغايةِ التّوثّبِ والسُّرعةِ فتبقَى في أمكنتها التي رآها فيها مِن بعيد كأنّها مُقيَّدةٌ.

وما نحنُ إزاءَه هنا، مِن إهمالِ تَعْليمِ أصولِ معاني المفردات في مُصنَّفاتِ تَعْليمِ علومِ العربيّة مِن نَحْوٍ وصَرْفٍ وبلاغةٍ قديمًا، عادةٌ تَمثُلُ أمامَكَ مظاهِرُها حَيْثُ يمَّمْتَ. وفي «الكِتابِ» لِسِيبَوَيْهِ مَثَلًا ترى ذلك مُطَّرِدًا لا يتخلّفُ. ولا جِدالَ في أنّ هذا الكتابَ قَصَدَ مِنه مؤلّفهُ إلى تَعْليمِ أصولِ

النّحو. ولا جِدالَ أيضًا في أنّ مَن يقرؤونَه، مَتْنًا تَعْليميًّا، لَيْسُوا جميعًا في رُتْبةِ العُلَماءِ المُتْقِنين، بل جَمْهرتُهم مِن حديثي العَهْد بِالعِلْم.

وأذكِّرُ بِأنَّني إنّما ذكَرْتُ النّحوَ خاصّةً قاصِدًا المِثالَ والنَّموذجَ فقط. أمّا حالُ إهمالِ تعليمِ أصولِ معاني المفرداتِ، فدَأْبٌ عامٌّ قديمُ العَهْدِ في تعليمنا. والمِحْنةُ ليسَتْ في ذلك، بل في استمرارِ التّقليدِ عَلَى امتدادِ القُرونِ مصحوبًا باستمرارِ ابتعادِ المعلِّمينَ والمتعلِّمينَ عن البيئةِ التي نشأت فيها شواهِدُ اللّغة، واستمرارِ تغيُّرِ أنماطِ الحياةِ وموجوداتِها. وابتغاءَ الإيضاحِ، أذكرُ عَلَى عَجَلةٍ مِثالًا عَمَليًّا مِن حياتي الشّخصيّة. فقد نشأتُ في بِيئةٍ في غاية القُربِ مِن البيئةِ العربيّةِ التي نشأَتْ فيها شواهِدُ اللّغةِ وأمثلتُها. ثمّ حِينَ تهيّأ لي أن أدخُلَ قِسْمَ اللّغةِ العربيّة كنتُ أعْرِفُ غيرَ قليلٍ مِن معاني مُفرداتِ الشّواهد والأمثلة. كنتُ أفهَمُ فيما يختصُّ ببَيْتِ الشَّعْر مَثَلًا مدلولاتِ ألفاظٍ مِثْل: الخُصّ، والشُّقّة، والطّريقة، والعمود، والوَتِد، والطُّنُب، والنُّؤْي، والرِّواق، والزَّرْب. نعَمْ كنتُ أفهَمُ مقاصِدَ كثيرٍ مِن مُفْرداتِ الشّواهِدِ والأمثلة؛ لِأنّ صفحةَ الحياةِ كانَتْ ماثلةً أمامَ باصِرَتَيّ لِزَمن، ولِأنّ النّاسَ كانوا يُسمّونَ الأشياءَ التي تحملُهم الضّرورةُ عَلَى المُلابَسةِ لَها، وأنا أسْمَعُ ذلك. ولَكَ أن تتوسَّعَ في تَصوُّرِ ما اختزنَه وَعْيي مِن عناصِرِ تلك الحياة. لكنّ أولاديَ الذين عاشوا في المدينة ليس لديهم حَصيلةٌ مِن ذلك. وهذا أمْرٌ عاديٌّ تمامًا.

ذلكم أساسُ المسألةِ التي أحدّثكم عنها: أُهْمِلَ تَعْليمُ المتعلِّمينَ أصولَ معاني المفرداتِ التي يعتمدونَها أُسُسًا لِبناءٍ تعليميٍّ يؤثِّرُ كثيرًا في تكوينهم الثّقافيِّ والمعرفيّ، وفي تعامُلِهم مَعَ أنفسِهم ومعَ الآخرين.

- حالُ المسألةِ اليومَ:

وَرِثْنا في تعليمِنا الحديثِ والمُعاصِرِ الطّريقةَ القَديمةَ في إهمال تعليمِ أصولِ معاني مُفرداتِ الشّواهِدِ والنّصوصِ في تعليمِ اللّغةِ العربيّة. وصِرْنا، في خيْرِ الأحوالِ، نكتفي بِإشاراتٍ متعجِّلةٍ إلى مَعانيها السِّياقيّة، ناسِينَ أنّ المعنَى السِّياقيَّ لِلْمُفردةِ لَيْسَ إلّا استعمالًا خاصًّا يُحدِّدُه وجودُ المفردةِ في سِلْسِلةٍ كَلاميّةٍ قاصِدةٍ إلى تحقيقِ غَرَضٍ إفهاميٍّ خاصٍّ. وناسِينَ أنّ كلَّ استعمالٍ لِلْمُفردةِ يَشحنُها بِطاقةٍ دِلاليّة خاصّةٍ لا تكونُ لها في الأَصْل.

ونُقطةُ الضَّعْفِ الكبيرةُ هنا أنّ المعلِّمينَ أنفسَهم لم يتعلّموا هم أنفسُهم المعانيَ الأَصْليّةَ لِلْمفرداتِ، ولا يَرَونَ في أنفُسهم حاجةً إلى ذلك. وأحْدَثَ تَقادُمُ العَهْدِ ضَرْبًا مِن الاتّفاقِ الضّمنيّ بينَ المتعلِّمِ والمعلِّمِ عَلَى الاكتفاءِ بِمَعرفةِ أقلِّ القليل. والتأمَ الشَّمْلُ عَلَى أنّ المطلوبَ لَيْسَ أكثرَ مِن هذا الذي عليه الحالُ. ونَخالُ نحنُ أنّ التّعليمَ الصّحيحَ لِلْعربيّةِ، كتَعْليمِ سائرِ اللّغات، ينبغي أن ينطَلِقَ أساسًا مِن «فِقْهِ المُتون»، ويستدعي ذلك قَبْلَ كلِّ شَيْءٍ تعليمَ أصولِ معاني المفرداتِ، لِيُنتقلَ مِن ذلك إلى تَعرُّفِ مَعانيها في سِياقاتِها التي تَرِدُ فيها، ثمّ إلى تعرّفِ مَعانيها النّحويّة، الذي يُفضي إلى المنشودِ مِن «فِقْه المَتْن». الذي حَدَث في عَصْرنا أن فُصِلَ فَصْلًا قويًّا بينَ الفِقْهِ التّامِّ لِمُرادِ القائلِ في المَتْنِ اللّغويِّ وبينَ الإعرابِ الاصطلاحيّ؛ أي تحديدِ المعاني النّحويّة. وفِكْرةُ «المعْنَى النّحْويِّ» في غايةِ الأهمّيّةِ في فِقْه المَتْن. وينبغي في تعليمِ النّحوِ والصَّرْفِ والبلاغةِ أن تأتي بَعْدَ عِدّةِ محاولاتٍ لِفَهْمِ القَصْدِ العامِّ لِلْمَتْنِ اللّغويّ. ونَحْسَبُ أنّ تعرّفَ المعاني النّحويّة، مِن ابتداءٍ وإخبارٍ وفِعْليّةٍ

وفاعِليّةٍ ومفعوليّة وظَرْفيّة وحاليّة وعِلّيّة..، يَغدُو سَهْلًا بَعْدَ فِقْهٍ عامٍّ لِمُحتوَى المَتْنِ اللّغويّ. وما نُشيرُ إليه هنا هو، عَلَى الحقيقة، نتيجةٌ مِن نَتائج إهمالِ تعليمِ مَعاني أصولِ المفردات. ولِبَحْثِ ذلك مَحَلٌّ آخَرُ غيرُ الذي نحنُ إزاءَه هنا. فلا بُدَّ مِن عَطْفِ عِنانِ القولِ مِن جديدٍ إلى عُمْقِ المسألة، الذي يتجلّى في الوقوفِ عندَ ما سيتلو:

– أصولُ مَعاني المفرداتِ والنَّظْرةُ اللّغويّةُ إلى العالَم:

تكْمُنُ هنا خاصّيّةٌ مِن أظهَرِ خاصِّيّاتِ عَبْقَريّاتِ الأُمَمِ في تَعرُّفِها العالَمَ المحيطَ بها، وإعطائها الأسماءَ لِلْمُسمَّيات، ثمّ بِالتّبعيّةِ عبقريّةِ اللّغةِ نفسِها. ويذهَبُ أهلُ التّحقيقِ في عِلْمِ الدِّلالةِ semantics إلى مُلاحظةِ أنّ لِكُلِّ قومٍ طَبيعةً خاصّةً بِهم في «الوَضْعِ اللّغَويّ»، أو إعطاءِ الأسماءِ لِلْمُسمَّيات. ففي تَسْميةِ «المائدة table»، مَثَلًا، يُراعي بَعضُ الأقوامِ الخاصِّيَّاتِ الظّاهريّةَ لِـ «المائدة»، فيخلَعُونَ اسْمًا خاصًّا عَلَى كُلِّ شَكْلٍ ظاهريٍّ لِـ «المائدة»؛ فلِلْمائدةِ المُسْتديرةِ اسْمٌ خاصٌّ بِها، وكذا لِكُلٍّ مِن المُرَبَّعةِ والمُسْتطيلة. وفي مُقابلِ ذلك، يَنظُرُ قومٌ إلى الوظيفةِ العامّةِ التي تُؤدّيها «المائدةُ»، فيُعطونَ لِلْأشكالِ الثّلاثة اسْمًا واحِدًا «مائدة». وهذه النَّظْرةُ اللُّغَويّةُ إلى العالَم linguistic world view، أو قِصّةُ إعطاءِ الأسماءِ لِلْمُسمَّيات، شَأنٌ مُهِمٌّ جدًّا في إدراكِ عبقريّةِ لُغتِنا العربيّة، ومعرفةِ الكَيْفيّةِ التي نَظَر فيها العربُ إلى أشياءِ الوجودِ المُعايَنِ المُحِيطِ بِهم. وعَلَى أساسِ ذلك أيضًا، يُمكنُ فَهْمُ السّببِ في كَثْرةِ أسماءِ الشّيءِ الواحِدِ في العربيّة، أي كَثْرةِ صِفاتِ الشّيءِ التي وَقَعَتْ عليها عَيْنُ العربيّ. فـ «الدّارُ» و«البيتُ»

و«المَنْزِلُ» و«المَسْكنُ» و«الحُجْرةُ» و«القَصْرُ»، أسماءٌ لِشَيءٍ واحِدٍ تقريبًا، أو لِأشياءَ متشابِهة، لكنْ كلٌّ مِنها يُعبِّرُ عن وِجهةٍ مُعيَّنةٍ لاحظَها المتكلِّمُ في الشّيءِ نَفْسِه. ففي «الدّارِ» لاحظَ معنَى دَوَرانِ الإنسانِ حِينَ يُقيم فيها. وفي «البَيْتِ» لاحظَ معنَى أنّه يَبيتُ فيها لَيْلًا. وفي «المنزِلِ» لاحظَ أنّ الإنسانَ يكونُ راحِلًا راكِبًا فينزِلُ. وفي «المَسْكَنِ» لاحظَ أنّه يسكنُ فيه، وتقِلُّ حرَكتُه. وفي «الحُجْرةِ» لاحظَ معنَى أنّها تحجُرُ مَن فيها، أي تمنَعُ غيرَه مِن مُلابَسته. وفي «القَصْرِ» لاحظَ معنى الحَبْسِ والمَنْع.. إلخ.

ولَعلّهُ باتَ واضحًا الآنَ أنّ النَّظْرةَ إلى العالَمِ التي تعبِّرُ عنها اللّغةُ العربيّةُ تُؤذِنُ بِقَدْرٍ كبيرٍ مِن وَعْيِ الوجودِ المتعيِّن، وبِقَدْرٍ كبيرٍ أيضًا مِن لَحْظِ خاصِّياتِ الأشياءِ، لا نَحْسَبُ أنّ اللّغاتِ متساويةٌ فيه.

وفي مَيدانِ تعليمِ اللّغةِ تعمَلُ معرفةُ أصْلِ المعنى المُسْتَكِنِّ في اللّفظ في صُورة المَرْقَبِ الذي يَشْهَدُ مِنه العقلُ حَرَكةَ المعنى والإضافاتِ السِّياقيّةَ التي يَكْسِبُه إيّاها الاستعمالُ في السِّياقاتِ المختلفة. كما تعمَلُ هذه المعرفةُ عَمَلَ العامِلِ المُنشِّطِ لِإدراكِ مَظاهِرِ الاستعمالِ الفَنّيِّ لِلّغة. ويَظْهَرُ لَنا ذلك بِقَدْرٍ ما، حِينَ تَصْحَبُ أذهانُنا مَثَلًا مادّة «ط غ ي» في العربيّة، فتعلَمُ أنّ أصْلَ المعنَى هو مُجاوزةُ الحَدّ، فيُقالُ لِكُلِّ مُجاوِزٍ حَدَّه في العِصْيان: طاغٍ. لكنْ يُقالُ أيضًا: طَغَى البَحْرُ، بِمَعْنَى: هاجَتْ أمواجُه. ويُقالُ: طَغَى السَّيْلُ، بِمَعْنَى: جاءَ بِماءٍ كثير. ويقالُ لِلصّاعقةِ أيضًا: الطّاغية. وجاء في القرآن الكريم «الطّاغيةُ» بِمَعْنَى: صَيْحة العذاب. وغيرُ خافٍ أنّ المعنَى الأصلِيَّ ماثِلٌ في كلٍّ مِنها. فثَمّةَ «معنًى كُلِّيٌّ» هو رُوحٌ مُسْتَكِنٌّ، يتجلَّى ويتعيَّنُ في كلِّ

استعمالٍ بِمَظْهَرٍ خاصٍّ. وكلّما ازدادتِ الاستعمالاتُ لِلْمُفردةِ الواحِدةِ أضافَتْ حياةً جديدةً إلى المعنَى، وأظهَرَ ذلك حركةً واسعةً في تعامُلِ أهْلِ اللّغةِ معَ الوجود. ويُفيدُ هنا فِكْرةُ «الوَحْدةِ» و«الكَثْرةِ»، حَيْثُ الرّوحُ الواحِدُ والمَظاهِرُ المتعدِّدةُ. وعَلاقةُ الرَّحِمِ بينَ مَعاني المفرداتِ المتعيّنةِ المُنبثقةِ مِن أصْلٍ دِلاليٍّ واحِدٍ، تُذكِّرنا تمامًا بقَوْلِ رَبّنا سُبْحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النّساء: ١].

- المحصولُ الفِكْريُّ واللّغَويُّ والتّعليميُّ مِن تعليم أصول معاني المفرداتِ:

يقدِّمُ العِلْمُ بِالمعنى الأصْليِّ لِلْمُفردةِ مَنارةً فِكْريّةً ولُغويّةً وتعليميّةً تُضيءُ مَعانيَ مفْرداتٍ أُخَرَ، لَها حَظٌّ مِن هذا المعنَى الأصْليّ. فإنّ المعنَى الأَصْليّ يَظَلُّ ذا وجودٍ جزئيٍّ ظاهِرٍ أو خَفِيٍّ في دِلالة الكلمةِ الأخرى الآخِذةِ لِشَيءٍ مِن ذلك المعنى الأصليّ، والمتصرِّفةِ فيه. فتعليمُ المتعلِّمِ أنّ المعنَى الأَصْليَّ لِـ «الشَّرَف» هو العُلُوُّ والمكانُ العالي، يَكْسِبُه سَعَةَ فِكْرٍ وخِبْرةً لُغويّةً وتعلُّمًا يُسَهِّلُ عليه أن يَفْهَم أنّ «الجَبَلَ المُشْرِفَ» هو الجَبَلُ العالي، وأنّ «الرَّجُلَ الشّريفَ» هو ذو الرِّفْعةِ والسَّناءِ وعُلوِّ المَنْزِلة، وأنّ «شَرّفَه اللهُ» تعني: أعطاه شَرَفًا ورِفْعةً، وأنّ «شُرْفةَ القَصْرِ» هي ما أشْرَف فيه وأطَلَّ، وأنّ «تَشَرَّفْتُ بِكذا» تعني: عَدَدْتُه شَرَفًا، وأنّ «المَشْرفيَّ» هو السّيفُ المنسوبُ إلى «مَشارفِ الشّام»، وهي قُرًى مِن أرضِ العربِ تدنو مِن الرّيف وتُشرِفُ عليه، وأنّ «شارَفَ الشّيءَ» معناه: أشْرَفَ عليه، وأنّ «شارفَ الرَّجُلُ غيرَه» مَعْناهُ:

فاخَرَه أيُّهما أشْرَفُ. ومِثْلُ هذا يقالُ أيضًا في «الشَّرْقِ» الذي هو «المَشْرِقُ»، و«الشَّمْسُ». فإذا ما عُلِّمَ المتعلِّمُ هذا المعنَى الأَصْليَّ حَصَّلَ قَدْرًا مِن الفِكْر واللّغةِ والتّعلُّم، وفَهِمَ أنّ قولَهم «طَلَعَ الشَّرْقُ» يعني: طَلَعتِ الشّمسُ. وسَهُلَ عليه أن يستظهِرَ أنّ «المَشْرِقَيْنِ» هما مَشْرِقا الشّمْسِ في الصّيفِ والشّتاء، أو مكانُ شُروقِها ومكانُ غُروبها، وأنّ «المَشْرُقةَ» هي موضِعُ القُعودِ في الشّمس، وأنّ «شَرَقَتِ الشّمْسُ» معناهُ: طلعَتْ، وأنّ «أشرقَتِ الشّمسُ» معناه: أضاءت، وأنّ «أشْرَقَ وَجْهُ الرَّجُلِ» معناهُ: أضاءَ وتلألأ حُسْنًا، وأنّ «تَشْريقَ اللَّحْمِ» مَعناهُ: تقديدُه وتقطيعُه وتعريضُه لِلشَّمْس، وأنّ «التّشريقَ» معناهُ: الأَخْذُ في ناحيةِ المَشْرِق، فإنّه يُقالُ: شَتّانَ بينَ مُشَرِّقٍ ومُغرِّب.

وقد انتبهَ عالِمُ اللّغةِ العربيّةِ الكبيرُ أبو الفَتْحِ عثمان بنُ جِنِّيّ (تـ ٣٩٢هـ) إلى صُورةٍ أخرى لِإهمال تعليمِ أصول معاني المفردات، وعَقَدَ لها في كتابِه «الخَصائص» بابًا أَسْماهُ: «بابٌ في تلاقي المعاني، عَلَى اختلافِ الأصولِ والمباني»، وقالَ في شأنِ أَهمّيته وسُمُوِّ منزلةِ العربيّةِ به: «هذا فَصْلٌ مِن العربيّةِ حَسَنٌ، كثيرُ المنفعةِ، قَوِيُّ الدِّلالةِ عَلَى شَرَفِ هذه اللّغة. وذلك أن تجدَ لِلْمَعْنَى الواحِدِ أسماءً كثيرةً، فتبحثَ عن أَصْلِ كلِّ اسْمٍ مِنها، فتجدَه مُفْضِيَ المَعْنَى إلى معنَى صاحبه». (الخصائص ٢/١١٣).

وقدّمَ أبو الفَتْحِ نماذجَ كثيرةً يوافقُه المرءُ عَلَى مَذْهَبِه فيها، وأَكتفي لِضيقِ المقامِ بِنَموذجٍ واحِدٍ مِنها. يقولُ: «..ومِن ذلك قولُهم: صَبيٌّ وصَبيّةٌ، وطِفْلٌ وطِفْلةٌ، وغُلامٌ وجاريةٌ. وكلُّه لِلّينِ والانجذابِ وتَرْكِ الشّدّةِ والاعتياصِ. وذلك أنّ «صَبيًّا»: مِن صَبَوْتُ إلى الشّيءِ، إذا /مِلْتَ إليه ولم تستعصِمْ دُونَه.

وكذلك «الطِّفْلُ» هو مِن لَفْظِ: طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلْغُروب، أي: مالَتْ إليه، وانجذبَتْ نحْوَه... ومِنه قِيلَ: فُلانٌ طُفَيليٌّ؛ وذلك أنّه يَميلُ إلى الطّعام. وعَلَى هذا قالوا له: غُلامٌ؛ لِأنّه مِن الغُلْمةِ، وهي اللِّينُ وضَعْفةُ العِصْمة. وكذلك قالوا: جاريةٌ. فهي فاعِلةٌ مِن «جَرَى الماءُ وغيرُه»؛ ألا ترى أنّهم يقولون: إنّها غَضّةٌ بَضّةٌ رَطْبةٌ. ولِذلك قالوا: قد عَلاها ماءُ الشّباب، قال عُمَر:

وهي مَكْنُونةٌ تحيّرَ مِنها في أديمِ الخدَّيْنِ ماءُ الشّبابِ

وذلك أنّ الطِّفْلَ والصَّبيَّ والغُلامَ والجاريةَ لَيْسَتْ لَهم عِصْمةُ الشّيوخِ، ولا جُسْأةُ(*) الكهول. وسأَلْتُ بعضَ بَني عُقَيْلٍ عن قولِ الحِمْصيّ:/

لم تُبْلِ جِدّةَ سُمْرِهم سَمُرٌ، ولَم تَسِمِ السَّمومُ لِأُدْمِهِنّ أَديما

فقال: هُنَّ بِمائهنَّ، كما خُلِقْنَه..». (الخصائص ٢/ ١١٨-١٢٠).

وقد أَثْنَى ابنُ جِنِّيّ عَلَى هذه الخَصيصةِ في العربيّة، وبَيّنَ أنّ مُنتهى أمْرِ النّاسِ في التّعليم والتّعلُّمِ أن يعرفوا معانيَ هذه الكلمات. أمّا اكتناهُ أصْلِ المعنى الجامِعِ بينَها فلا نَصيبَ لهم مِنه، بل ربّما يكونُ عندَ كثيرٍ مِنهم نَفْلًا لا حاجةَ إليه. يقولُ: «فهذا ونَحْوُه مِن خَصائصِ هذه اللّغةِ الشّريفة اللّطيفة. وإنّما يسمَعُ النّاسُ هذه الألفاظَ، فتكونُ الفائدةُ عندَهم مِنها إنّما هي عِلْمُ مَعْنِيّاتِها. فأمّا كيفَ، ومِن أينَ، فهو ما نحنُ عليه. وأَرْجِحْ بِهِ أن يكونَ عندَ كثيرٍ مِنهم نَيِّفًا لا يُحتاجُ إلَيه، وفَضْلًا غيرُه أولَى مِنه». (الخصائص ٢/١٢١).

ويُستفادُ مِمّا تقدّمَ أنّ تعليمَ أصولِ معاني المفرداتِ يُفيدُ في وِجْهَتَيْن:

---

* - اليُبْسُ والصّلابةُ. والحِمْصيُّ الآتي بعدَ قليلٍ: دِيكُ الجِنِّ، عبدُالسّلامِ بنُ رَغْبان (ت ٢٣٥هـ).

الأولى- أنّ المعنَى الأَصْلِيَّ يَظَلُّ يَسْري في معاني المفرداتِ المُنتمِيةِ إلى هذا الأَصْل، ومعرفتُه تُسهِّلُ تعلُّمَ معاني هذه المفردات. وفي تَعْليمِه وتَفْهيمِه طاقةٌ تعليميّةٌ تُنمِّي الفِكْرَ وتُضاعِفُ الخِبْرةَ باللّغة، وتُعينُ عَلَى التّعلُّمِ وعَلَى استعمالِ المفرداتِ الكثيرةِ المنتمِيةِ إلى هذه النّواةِ، أو هذا الأَصْل.

الثّانيةُ- أنّ المعنَى الأَصْليَّ الواحِدَ في العربيّةِ قد يَفْرِضُ استعمالَ مُفرداتٍ مِن أصولٍ ومَبانٍ مختلفة. وفي تعليمِه وتفهيمِه طاقةٌ تعليميّةٌ تعمَلُ عَمَلَ الصِّنْفِ الأوّل.

- أضرارُ إهمالِ تعليم أصول معاني المفردات:

١- تجهيلُ المتعلِّمينَ بِلُغتِهم، وإنقاصُ حَظِّهم مِن عِلْم العربيّة:

يَعْمَلُ إهمالُ تعليمِ أصولِ معاني المفردات عَلَى تَقْليلِ حَظّ المتعلِّمينَ لِلْعربيّةِ مِن مادّتِها اللّغويّةِ أو مُعْجَمها. ويُضعِفُ ذلك قُدرةَ المتعلِّمِ عَلَى فَهْمِ مَعاني المُتون، الأَمْرُ الذي يُقلِّلُ نَماءَه الفِكْريَّ، واستمتاعَه بِما يُسمَّى «بَهْجةَ المعرفة»، وحَظَّه مِن الخِبْرةِ النّقديّة والجَماليّة. كما يُقلِّلُ نَصيبَه مِن إنتاجِ الكلام، والإبداعِ فيه، والافتنانِ في مادّتِه الفِكْريّة واللّفظيّة. وحِينَ يَغدُو هذا مُعلِّمًا لِلْعربيّةِ، يكونُ ساعِيًا إلى الهيجاءِ بِغَيْرِ سِلاح، ودَليلًا محتاجًا إلى دليل. ولِأمْرٍ ما قالوا: قد فَعَلَ اللّيلُ أَفْعالَ اللّيلِ، وفَعَلَ النّهارُ أفعالَ النّهار.

٢- جَهْلُ عناصِرَ أساسيّةٍ في عبقريّةِ العربيّة:

تقدّمَتِ الإشارةُ إلى أنّ النَّظْرةَ إلى العالَمِ في العربيّةِ تَتّسِمُ بِكَثْرةِ المَظاهِرِ التي تُلْحَظ في الشَّيء أو المعنَى، فيُعطَى كلٌّ مِنها اسْمًا خاصًّا به. ويَشي ذلك بِوَعْيٍ عَميقٍ ودقيقٍ ومُميِّزٍ لِعناصِرِ الوجود. وهو مِن عبقريّةِ العربيّةِ وشَرَفِها ونُبْلِها، والجَهْلُ في شأنِه جَهْلٌ لِعناصِرَ أساسيّةٍ في عبقريّةِ هذه اللّغة. ألا يَجهَلُ عناصِرَ أساسيّةً في عبقريّةِ العربيّةِ مَن يجهَلُ أنّ «النّاقةَ» سُمّيَتْ بِهذا الاسْمِ لِأنّها «كانَتْ عندَهم مِمّا يَتَحسّنونَ به، ويتباهَوْنَ بِمِلْكِه، فهي (فَعَلَةٌ) مِن قولِهم: تنوَّقْتُ في الشّيءِ، إذا أحكمتَه وتخيّرتَه»، وأنّ «الجَمَلَ» سُمِّي بِهذا الاسْمِ «لِأنّه (فَعَلٌ) مِن الجَمال»؟ (الخصائص ١٢١/٢). نَعَمْ، النّاقةُ عندَهم مِن «الأناقةِ»، و«الجَمَلُ» مِن الجَمال. وكذا «النّاسُ» مِن الأُنْسِ؛ لِأنّه «بِهم العِمارةُ وحُسْنُ الآثار، وعَلَى أيديهم يَتمُّ الأُنْسُ وطِيبُ الدّيار» (الخصائص ١٢١/٢). وكذا «الغَنَمُ» مِن الغَنيمةِ، و«الخَيْلُ» لِأنّها فَعْلٌ مِن الاختيال (الخصائص ١٢٢/٢)، و«الحِصانُ» حِصْنٌ لِصاحِبِه. وقد تنبّهَ العلّامةُ ابنُ جِنّي إلى قِدَمِ العَهْدِ في إهمالِ تعليمِ أصولِ معاني هذه الكلمات، فقال: «وأَهْلُ اللّغةِ يسمعونَ هذا فيَرْوونَه ساذَجًا غُفْلًا، ولا يُحِسّونَ لِما نحنُ فيه مِن حديثِهِ فَرْعًا ولا أصلًا». الخصائص ١٢٣/٢).

٣- مُعاداةُ العربيّةِ؛ لِأنّ مَن جَهِلَ شيئًا عاداه:

بَثَّ الخالِقُ العظيمُ سُبْحانَه آياتِ الحُسْنِ والبَهاءِ في الأنفسِ وفي الآفاق، فقال في الكتابِ الإلهيّ العزيز: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السّجدة: ٧]، وهَيّأ سُبْحانَه المخلوقَ المُكرَّمَ، الإنسانَ، لِأن يُدرِكَ الجَمالَ في الصُّنْعِ

الإلهيِّ، ودعاه إلى ذلك فقال مَثَلًا: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]. ونَذْهَبُ، جَرْيًا مَعَ هذا، إلى أنّ في كلِّ لُغةٍ مِن اللّغاتِ نَوْعَ حُسْنٍ خاصًّا، وإلى أنّ العربيّةَ حازَتْ مِن مَظاهِرِ الحُسْنِ الشّيءَ الكثيرَ، والنّوعَ النّفيسَ الخَطيرَ. ونَعْلَمُ أيضًا أنّه كلّما ازدادَ الإنسانُ عِلْمًا بِالعربيّةِ وخصائصِها ازدادَ لَها عِشْقًا، وازدادَ بِآياتِ حُسْنِها تعلّقًا.

والدّاءُ الدَّوِيُّ فيما نحنُ فيه أنّ الغافِلَ عن خاصِّيّات حُسْنِ هذه اللّغةِ تستوي عِندَه في هذا الشّأن الشَّذْرةُ والبَعْرةُ، ولا يكتفي بِهذا أحيانًا، بل يتفاقَمُ أَمْرُ عَماه لكي يكرهَ اللّغةَ وأَهْلَها. وأكثَرُ ما تجدُ ذلك عندَ «أنصافِ» المتعلِّمينَ الذين عَرَفوا مِن العربيّةِ النَّزْرَ اليسيرَ، ولم يتعدَّ محصولُهم مِن لُغةٍ أجنبيّةٍ أو أكثرَ شَرْوَى نَقير. ورَحِم الله شاعِرَ العربيّةِ العِملاقَ أبا الطّيّبِ المتنبّي إذ يقولُ:

ومَــن يــكُ ذا فَــمٍ مُــرٍّ مَــريضٍ يَجِــدْ مُــرًّا بِــهِ المــاءَ الــزُّلالا

وكيفَ لا يُعادي جاهِلُ آياتِ حُسْنِ العربيّةِ، هذه اللّغةَ الكريمةَ، وهو لا يَعْلَمُ أنّ «المَعْرِضَ» هو مكانُ العَرْض، وأنّ «المِعْرَضَ» هي ثِيابٌ تُعْرَض فيها الجَواري؛ لِتعْرِضَ بِها حُسْنَها، وأنّ الشّريعةَ في الأَصْلِ هو مَوْضِعُ وُرودِ الماء مِن النَّهْرِ، وأنّ «نَتيجةَ» مَعْناها في الأَصْل «مَوْلود»، وأنّ «المَلَأ» هم كِبارُ القومِ الذين يُمْلَأ الفَمُ بذِكْرِهم، وأنّ «العَشيرةَ» مِن العِشْرة، وأنّ «القَلْبَ» لُوحِظَ في تَسْميتِهِ معنَى التّقلُّب، وأنّ «العَقْلَ» يَعْقِلُ، أي يمنَعُ ويضبِطُ، وأنّ «الهَوَى» يَهْوِي بِصاحِبه...

٤- الكسَلُ الفِكْريُّ والمَعْرِفيُّ:

يُحَرِّك العِلْمُ بِالمَسافةِ الدِّلاليّةِ بينَ أَصْلِ معنَى المفردةِ والمعنَى الاستعماليِّ الطّارئ، قُدْرةً كامِنةً في فِكْرِ المتأمِّلِ. وحِينَ يَجِدُّ في تحصيلِ ذلك تراه يُعْمِلُ عَقْلَه ويُنشِّطُ آلةَ إدراكِه ومعرفتِه. وحِينَ يكتشِفُ صِلةَ الرَّحِمِ هذه تُدركُه بَهْجةُ المعرفةِ، وتنتابُه أريحيّةُ مَن جَدّ فَوَجَد، ومَن تأنَّى فنالَ ما تمنّى. ونَرى الغَيرَ المُشتغلينَ بِذلك مِن المعلِّمينَ والمتعلّمينَ يعيشونَ حالًا مِن «الجَهْلِ» المَرْضيِّ عنه، المتّفَقِ عليه. وحالُ هؤلاءِ غَريبةٌ عَجيبةٌ، وتُشبِهُ مِن وِجهةٍ ما، حالَ الزّارعِ الرّاضي مِن مَحْصولِ حَقْلِه الرّائعِ الخِصْبِ بِعُشْرِ الزّكاة فقط.

٥- صعوبةِ تعلُّمِ اللّغة:

تَبَعًا لِما تقدّمَ، تبدو اللّغةُ أمامَ المحرومينَ مِن تَعلُّم أصولِ معاني المفرداتِ في تعليمِ لُغتِنا العربيّةِ وتعلُّمِها كلماتٍ صَمّاءَ، تُعاني دِلالاتُها عَلَى مَعانيها مِن اعتباطيّةٍ تُعْمي وتُصِمّ. ويضاعِفُ ذلك مِن زِيَادةِ الكُلْفة في التّعلّم، فبَدَلًا مِن جُهْدٍ محدودٍ يَنصَرِفُ إلى تعلُّمِ مجموعةٍ مِن أُمَّهاتِ المعاني الدّالّةِ مَعانيها الأصليّةُ عَلَى مَعاني بَناتِها، يَفْرِضُ إهمالُ تَعلُّمِ أصولِ المعاني كُلْفةً مُضاعفةً في حِفْظِ أعدادٍ كبيرةٍ مِن الدَّوالِّ عَلَى مدلولاتٍ محدودة. وما أقرَبَ ما يقولُ الذّكْرُ الحكيمُ مِن هذا الذي نزعُمُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]. ولا نخالُ غيرَ مُناسِبٍ أن نَتحدّثَ هنا عن شُعوبِ المعاني وقَبائلِها في العربيّة، التي تُساعِدُ المتعلِّمينَ

عَلَى تعرُّفِها. ويقولُ الزّمخشَريُّ مُعَلِّقًا عَلَى خَلْقِ الله سُبْحانَه البَشَرَ شُعُوبًا وقبائلَ: «والمعنَى أنّ الحِكْمةَ التي مِن أَجْلِها رَتّبكُم عَلَى شُعوبٍ وقبائلَ هي أن يَعْرِفَ بعضُكم نَسَبَ بعضٍ، فلا يعتزي إلى غيرِ آبائه» (الكشاف ٤/٣٧٥).

ونَخالُ أنّ لِشُعوبِ اللّغةِ العربيّةِ وقبائلِها، الظّاهرةِ بِجَلاءٍ في انتماءِ مجموعاتٍ مِن الألفاظِ إلى أصلٍ لَفْظيٍّ ومعنويٍّ واحِد، تأثيرًا كبيرًا في تسهيلِ تَعْليمِها وتعلُّمِها. ولَعلَّ مِن الأمثلةِ الجيّدةِ لذلك قَبيلةَ «ضَ ح ا» في المعجَمِ العربيّ. فَـ «ضَحْوةُ النّهارِ بَعْدَ طلوعِ الشَّمْسِ، ثُمّ بَعْدَه «الضُّحا»، وهي حِينَ تُشْرِقُ الشّمْسُ... ثُمّ بَعْدَه «الضَّحاءُ».. وهو عندَ ارتفاعِ النّهارِ الأعْلَى... و«ضاحِيةُ» كلِّ شيءٍ ناحيتُه البارزةُ.. ومكانٌ ضاحٍ أي بارزٌ، و: «ضَحِيَ لِلشّمْسِ، بِالكَسْرِ، «ضَحاءً».. أي بَرَزَ لَها (مختارُ الصِّحاح، ض ح ا).

- المُحصَّلُ المستفادُ:

أظهَرَتِ الورَقةُ عَلَى نحوٍ نَخالُه جَليًّا أنّ قَدْرًا كبيرًا مِن الجُهْدِ المبذول، والوقتِ المستغَلّ، وطاقاتِ التّفكيرِ والإبداعِ، والإنفاقِ المُقدَّم بِسَخاء، في تعليمِ العربيّةِ وتعلُّمِها في وقتنا الحاضِر، تَضيعُ هَباءً منثورًا بِسَبَبِ إهمالِ تعليمِنا في مراحِلِهِ المختلفةِ لَفْتَ انتباهِ المتعلِّمينَ إلى أصولِ معاني المفرداتِ التي تُعتمَدُ مادّةً لِلتّعليم. وأنّ إهمالَ الأمْرِ في تعليمِنا القديمِ والوسيط له مُجيزاتٌ مُقْنِعةٌ، أمّا إصْرارُنا عَلَى ذلك في تعليمِنا الحديثِ والمُعاصِرِ إصْرارَ مَن قالوا في الرّوايةِ القرآنيّة: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ [الزّخرف: ٢٣]، فَعُقباهُ عُقْبَى مَن سَلَك طريقًا يَرجِعُه في آخِرِ النّهارِ

إلى النّقطةِ التي انطَلَقَ مِنها، وعُقْبَى مَن يكتبُ رسالةً لِحَبيبته عَلَى الماء، وعُقْبَى ذلك النّاقِدِ الأدبيّ الذي قِيلَ فيه:

ويَحْسَبُ أنَّهُ نَقّادُ شِعْرٍ هو الحادي، وليسَ لَهُ بَعيرُ

وأَمَا إنّ الأمْرَ كذلك، فلَيْسَ لَنا إلّا أن نُداويَ الدّاءَ الذي استيقَنّا أنّه مُهلِكٌ مُبيرٌ، وما طَريقُ العِلاجِ مِنه بِعَسير، ولِذلك مَجالُ حديثٍ آخَرَ يطول. وحَسُنَ كثيرًا قولُ مَن قال:

جِدْ بِنَفْسِي الذّاتِ ذاتًا لا تَهابْ اجتَهِدْ، واللهُ يَهْديكَ الصّوابْ

ومِنه سُبْحانَه الهِدايةُ إلى الرُّشْد.